# صفحات ونفحات

## من قصص المحبين الإلهيين

أستاذ الفلسفة الإسلامية والتصوف بكلية الآداب بجامعة القاهرة

---

لعل أظهر ما يظهر للمتأمل فيما يروى عن الصوفية من أقوال وأحوال وفيما يؤثر عنهم من آثار منظومة ومنثورة ، هو أن الحب الإلهى محور رئيسى تدور عليه هذه الآثار وتصدر عنه تلك الأقوال والأحوال : فنحن لانكاد نقف على حياة صوفى من الصوفية ، ولا على أثر من آثاره ، إلا ونجد الحب الإلهى قد أثر فيه ، ووجه ألفاظه ومعانيه ، وجعل منه شاعرا أو ناثرا يختلف حظ شعره أو نثره من القوة أو الضعف ، ومن الرقة أو العنف ، بمقدار ما سيطر عليه الحب ، وصفا منه القلب . ومن هنا لم تكن آثار الصوفية فى الحب الإلهى آثارا موضوعية يعرضون فيها موضوع الحب الإلهى عرضا مستقلا عن ذوات أنفسهم ، وإنما كان كل اثر منها بمثابة المرآة التى تنعكس على صفحتها حياة صاحبه ، وما لقيه فى سبيل حبه من مشقات وأهوال ، وما لقى به هذه المشقات والأهوال من صبر عليها ورضى بها أو من ضيق بها وتبرم منها

وقد خلف المسلمون الصوفية فى الحب الإلهى آثارا باقية تعد بحق تراثا روحيا رائعا له خطره فى تقويم الحياة الروحية الإسلامية من ناحية ، وله أثره فى قلوب المقبلين عليه والذائقين له من ناحية أخرى . ومن هذا القبيل ما خلفه كل من رابعة العدوية وذى النون المصرى ويحيى بن معاذ الرازى والحارث بن أسد المحاسبى والحسين ابن منصور الحلاج ومحى الدين بن عربى وشرف الدين عمر بن الفارض وكثير غيرهم ممن روت عنهم كتب الطبقات اقوالا ووصفت لهم فى الحب احوالا

وكان لهم فى هذا الحب صفحات ونفحات .

وليس من شك فى أن هذا التراث الروحى الذى خلفه الصوفية المسلمون فى الحب الإلهى هو خير المنابع التى تستقى منها الفلسفة الصوفية الإسلامية وما تنطوى عليه هذه الفلسفة من المعانى النفسية والخلقية والميتافيزيقية وليس من شك أيضا فى أن هذه المعانى كلها إنما تكون أقرب تناولا لها ، وأيسر حصولا عليها ، وأوضح فهما لمقاصد أصحابها منها ومذاهبهم فيها ، إذا كان المرجع أو المراجع فى هذا كله ما ألفه الصوفية من كتب ، وما أنشأه شعراؤهم من دواوين .

على أن التراث الروحى الإسلامى فى الحب الإلهى لا يقف عند حد الكتب المؤلفة والدواوين المنظمة فحسب ، وإنما هو يتجاوز هذه وتلك إلى ما يروى من روايات ، وما يحكى من حكايات ، قد تبدو لأول وهلة يقرؤها فيها القارىء العادى ، وكأنها ضروب من القصص ، وألوان من الأساطير ، وأن ما ورد فيها إنما هو من صنع الخيال ، وأنها بحكم هذا الخيال أقرب ما تكون إلى الخرافة وأبعد ما تكون عن الحقيقة ، والواقع أنها ليست كذلك فى كل ما تشتمل عليه من العناصر ، وما ترمى إليه من المعانى والمنازع .

وها هى ذى كتب التراجم والطبقات قد حفلت بذكر كثير من القصص والحكايات عن المحبين والمحبات ، ووصفت لنا أحوالهم فى الحب الإلهى ، وسجلت أقوالهم التى عبروا بها عن تلك الأحوال ، فإذا هى فى ظاهرها تقص قصة وتحكى حكاية وقد تبدو الصنعة ويغلب الخيال على هذه الحكاية أو تلك القصة ، فإذا هى عند أول عهد القارىء بها كلام لا يكاد يصدقه العقل لما فيه من إسراف ومبالغة وإبعاد فى الخيال . ولكن تدبر هذه القصص والحكايات ، والروية فيما تشتمل عليه كل قصة من معنى وما ترمى إليه كل حكاية من مغزى ، سيكشفان من غير شك عما لهذه القصص والحكايات من خطر وما فيها من غناء : ذلك بأنه ما من قصة أو حكاية إلا وفيها معنى نفسى أو مغزى خلقى ، فضلا عما ينبث فى تضاعيفها من أقوال منثورة أو أبيات منظومة وكل أولئك فى الحقيقة بمثابه المواد

الأولية التى لا بد منها لفهم الحياة الروحية للمحبين الإلهيين ، ولا غنى عنها لمن يريد أن يكون صورة تاريخية متكاملة لنشأة الحب الإلهى وتطوره فى التصوف الإسلامى .

ولكى يتبين ما لهذه القصص من خطر ، وما فى هذه الحكايات من غناء يحسن أن أقف معك عند بعضها ، فلعلك واجدافيها من المعانى الروحية الدقيقة التى خفيت وراء الأساليب القصصية والعبارات الخيالية ، ما يشبع حاجة عقلك ، بقدر ما يرضى رغبة قلبك وذوقك :

فهذه قصة فتى متعبد مع جاريه أحبته وكاتبته ، ولكنه كان يرد عليها بردود تنطوى على تقاه وحبه لله وإيثاره هذا الحب الإلهى على حب الجارية . فقد قص شيخ من أهل العلم قصة ذلك الفتى مع الجارية فقال : كان عندنا فتى متعبد حسن السيرة ، فأحبته جارية من قومه ، وجعلت تكاتم أمرها مخافة العيب ، فمكثت بذلك حينا . فلما بلغ الحب منها أرسلت بكتاب ضمنته هذه الأبيات : —

تطاول كتمانى الهوى فأبادنى ... فأصبحت أشكو ما ألاقى من الوجد
فأصبحت أشكو غصة من جوى الهوى ... أقامت فما تعدو إلى أحد بعدى
فها أنا ذا حرى من الوجد صبة ... كثيرة دمع العين يجرى على خدى

وكان رسول الجارية الذى حمل هذا الكتاب إليه امرأة ، فلما أقبلت عليه المرأة بالكتاب قال لها : ما هذا ؟ قالت : كتاب أرسلنى به إليك إنسان . قال : سميه . قالت : إذا قرأته سميت لك صاحبه . ولكنه رمى بالكتاب إليها وأنكره إنكارا شديدا . فقالت له . ما يمنعك من قراءته . قال : هذا كتاب قد أنكره قلبى . ولكن المرأة لم تزل بالفتى حتى قرأه ، وإذا بالفتى يرفع رأسه إليها ويقول : هذا الذى كنت أحذر وأخاف . ثم دفعه إليها ، فقالت : أماله جواب ؟ قال : تقولين لها : « إنه يعلم السر وأخفى ، الله لا إله إلا هو له الأسماء الحسنى » . قالت : لا غير ؟ قال : فى هذا كفاية . فمضت المرأة إلى الجارية فأخبرتها بما جرى بينها وبين الفتى ، وإذا بالجارية تكتب إليه مرة أخرى فتقول : —

يافارغ القلب من همى ومن فكرى ... ماذا الجفاء فدتك النفس ياوطرى
إن كنت معتصما بالله تخدمه ... فإن تحليلنا فى محكم السور

فلما وصل الكتاب إلى الفتى قال : ما هذا ؟ قالت المرأة : تقرأه . فأبى ، ولكنها لم تزل تتلطف به حتى قرأه ، ثم رمى به إليها . فقالت : أما له جواب ؟ قال : بلى . قالت : ما هو ؟ قال : قولى لها : « وهو الذى يتوفاكم بالليل ويعلم ما جرحتم بالنهار » . فسارت المرأة إلى الجارية وأخبرتها بما جرى بينها وبين الفتى ، فإذا هى تكتب إليه مرة ثالثة فتقول :

فرج عن القلب بعض الهم والكرب ... وجد بوصلك والهجران فاجتنب
إنا سألناك أمرا مانريد به ... إلا الصلاح وأن نلقاك عن قرب
فإن أجبت إلى ما قد سألت فقد ... نلت المنى والهوى يا منتهى أربى
وإن كرهت وصالى قلت أكرهه ... وإننى راجع عن ذاك من كثب

فلما جاءت المرأة بالكتاب إلى الفتى ، أخذه وقال لها : إجلسى . وفتح الفتى الكتاب وقرأه عن آخره ، ثم كتب إلى الجارية كتابا كان هذا الشعر آخره :

إنى جعلت همومى ثم أنفاسى ... فى الصدر منى ولم يظهره قرطاسى
ولم أكن شاكيا مابى إلى أحد ... إنى إذن لقليل العلم بالناس
فاستعصمى الله مما قد بليت به ... واستشعرى الصبر عما قلت بالياس
إنى عن الحب فى شغل يؤرقنى ... تذكار ظلمة قبر فيه أرماس
ففيه لى شغل لازلت أذكره ... من السئوال ومن تفريق أحلاس
وليس ينفعنى فيه سوى عملى ... هو المؤانس لى من بين أناسى
فاستكثرى من تقى الرحمن واعتصمى ... ولا تعودى فى شغل عن الناس

فلما قرأت الجارية الكتاب أمسكت وقالت : إنه لقبيح بالحرة المسلمة العارفة مواضع الفتنة كثرة التعرض للفتن . ولم تعاوده .

وهذه قصة يقصها عتبة الغلام فيقول : خرجت من البصرة والأبلة ، فإذا أنا بخباء أعراب قد زرعوا ، وإذا أنا بخيمة ، وفى الخيمة جارية عليها جبة صوف لاتباع ولا تشترى ، فدنوت وسلمت فلم ترد السلام ، ثم وليت فسمعتها تقول :

زهد الزاهدون والعابدونا ... إذ لمولاهم أجاعوا البطونا
أسهروا الأعين القريحة فيه ... فمضى ليلهم وهم ساهرونا

حيرتهم محبة اللـــــه حتى عـــلم الناس أن فيهم جنونا
هم ألبا ذوو عقول ولكن قد شجـاهم جميع ما يعرفونا

قال عتبة : فدنوت إليها فقلت : لمن الزرع ؟ فقالت : لنا إن سلم . فتركتها وأتيت بعض الأخبية . فأرخت السماء كأفواه القرب . فقلت : والله لآتينها فأنظر قصتها فى هذا المطر ، فإذا أنا بالزرع قد غرق ، وإذا هى قائمة نحوه وهى تقول : والذى أسكر قلبى من طرف سحر بصفى محبة اشتياقك ، إن قلبى ليوقن منك بالرضا . ثم التفتت إلى وقالت : يا هذا ! إنه زرعه فأنبته ، وأقامه فسنبله وركبه ، وأرسل عليه غيثا فسقاه ، واطلع عليه فحفظه ، فلما دنا حصاده أهلكه . ثم رفعت رأسها نحو السماء وقالت: العباد عبادك وأرزاقهم عليك فاصنع ماشئت . فقلت لها : كيف صبرك ؟ قالت : أسكت يا عتبة .

إن إلهى لغـــنى حمـــيد فى كل يوم منه رزق جديد
الحمـــد لله الذى لم يزل يفعل بى أكثر ممـا أريد

قال عتبة : فوالله ما ذكرت كلامها إلا هيجنى .

وهذه قصة يقصها ذو النون المصرى عن زهراء الوالهة فيقول: بينا أنا أطوف فى بعض أودية المقدس سمعت قائلا يقول : ياذا الأيادى التى لا تحصى ، وياذا الجود والبقاء ، متع بصر قلبى بالجولان فى بساتين جبروتك ، واجعل همى متصلا بجود لطفك يا لطيف ، وأعذنى من مسالك المتجبرين بجلالك وبهائك يارءوف ، واجعلنى لك فى الحالات خادما وطالبا ، وكن لى يا منور قلبى ، ويا غاية طلبتى صاحبا . قال ذو النون فتبعت الصوت ، فإذا امرأة كأنها عود محترق عليها درع صوف وخمار شعر أسود قد أضناها الجهد ، وقتلها الكمد ، وذوبها الحب ، فقلت : السلام عليك . قالت : عليك السلام ياذا النون . قلت : كيف عرفت اسمى ولم ترنى ؟ قالت : كشف عن سرى الحبيب ، فرفع عن قلبى حجاب العمى فعرفنى اسمك . فقلت : إرجعى لمناجاتك . فقالت : أسألك ياذا البهاء أن تصرف عنى شر ما أجد ، فقد استوحشت من الحياة . ثم خرت ميتة ، فبقيت متحيرا . فأقبلت عجوز كالوالهة نظرت ثم قالت : الحمد لله الذى أكرمها . ولما سألها ذو النون عمن تكون هذه ، أجابته بقولها : هذه ابنتى زهراء الوالهة منذ عشرين سنة ، توهم الناس أنها مجنونة ، وإنما قتلها الشوق إلى ربها تعالى .

فهذه قصص ثلاث تتصور فى كل منها حياة محب أو محبة ممن ملك عليهم الحب لإلهى نفوسهم وعقولهم ، وتعبر عن طائفة من الدوافع النفسية والمنازع الخلقية والمعانى الذوقية التى تتصل من قريب أو من بعيد بهذا الحب الإلهى : فالتقى والعمل الصالح والاشتغال به ، والتفكر فى الله والاعتصام به وامتلاء القلب بحبه فى القصة الأولى ، والتوكل على الله والإذعان لحكمه وأمره ، والتسليم له والرضا بقضائه وقدره فى القصة الثانية ، وحب الله والشوق إليه والوله فيه ، والتسبيح بحمده على آلائه ونعمائه ، والاستعاذة من المتجبرين بجلاله وبهائه فى القصة الثالثة كل أولئك معان قد انطوت عليها الألفاظ والعبارات التى تألفت منها هذه القصص والتى ينبغى أن نقف عندها ونروى فيها ونستخلص منها ما ينبث فيها من عناصر لها قيمتها فى الإبانة عن سمات الحياة الروحية الإسلامية بصفة عامة وعن مقومات الحب الإلهى فى التصوف الإسلامى بصفة خاصة .

ومن أجل هذا كان ما يروى من قصص المحبين الإلهيين خليقا بأن نعنى به ، ونقبل على درسه ، ونمحص ألفاظه ومعانيه ، ونتفحص أغراضه وخوافيه ، وليس من شك فى أن من شأن هذا كله أن يعيننا على تفهم ما سطر فى هذا القصص من صفحات ، وتذوق ما يترقرق فى هذه الصفحات من نفحات .

محمد مصطفى حلمى

## كلمات
## للإمام الشافعى

● أركان المروءة أربعة ، حسن الخلق ، والتواضع ، والسخاء ، ومخالفة النفس .

● خذ من العلم ما ينفعك إذا أقبلت على ربك ، فإن دنياك خيال ، وكلها زوال ، والله يحول الأحوال .